تعقيبات

«الايديولوجية الانقلابية» (حوار ١٤)

في العدد الماضي من مجلة « حوار » التي اعتدت قراءتها ، وعلى الصفحة ١٢٩ ، استوقفني تعليق للاستاذ جوزيف ابو جوده حول كتاب «الايديولوجية الانقلابية » لمؤلفه الدكتور نديم البيطار. فاستغربت ما قرأت فيه من سوء فهم للكتاب وافتئات على حقيقته . وما كنت لاكلف نفسي عناء التعليق على تعليقه ، لولا اني كنت قد قرأت الكتاب المعلق عليه بدقة وخرجت معجبا به مقدرا لواضعه هذا الفتح الجديد بالفكر الثوري العربي ، راجيا على يدي صاحبه خيرا كثيرا للفكر العربي على هذا الصعيد.

وبعد قراءة التعليق المذكور والعودة مجددا الى الكتاب خرجت بالنتائج التالية : اولا ، ان المعلق لم يقرأ الكتاب اصلا ، ولا حتى المقدمة ، وقد اكتفى بقراءة الصفحات الثلاث من المقدمة وصفحة واحدة من كلمة الختام ، متصفحا بقية الكتاب ، مسقطا الف صفحة من حسابه . وهذا كان من الطبيعي ان تغيب عنه فكرة الكتاب، فجاء تعليقه حول الفكرة خاطئا فاضحا مليئا بالمغالطات. ثانيا، ان الفكرة الاساسية التي يدور عليها الكتاب لا اثر لها في التعليق ، وقد عجز المعلق عن الكشف عنها رغم وضوحها ، بل لم يستطع ان يذكر الايديولوجيات الفردية التي اعتمدها الدكتور البيطار في امثلته حول القانون الايديولوجي العام . فقد ذكر المعلق من بين الامثلة في مجال تعداد الايديولوجيات « النظام الحر » ، وهذا خطأ فاضح : فالمؤلف لم يذكر هذه الكلمة مطلقا، وكان على المعلق لو توخى الدقة ان يذكر الليبرالية لان النظام الحر جزء منها.

ان الكتاب ليس حول الانقلابات ، كما قال المعلق ، بل حول الايديولوجيات الانقلابية التي تقوم وراءها ؛ كما انه ، ليس كما قال المعلق ، عرضا للايديولوجيات الثورية في التاريخ ، بل عرض للخصائص الواحدة التي تعيد ذاتها في تلك الايديولوجيات . انه بكلمة حق ليس تاريخا بل دراسة فلسفية اجتماعية ، كما ان المؤلف لم يحاول اعطاء مضمون ايديولوجي معين لهذه المرحلة التي تمر بها امتنا بل حاول تحديد طبيعة المرحلة مطالب باعطائها ذلك المضمون.

اما العجز والتشويه فيظهران بشكل جلي صريح في قول المعلق : « سها عن بال المؤلف ان في الثورة ايديولوجية لولاها لما كانت هناك ثورة ، الخ » . فالفكرة الاساسية التي تسود الكتاب باستمرار من اول صفحة الى آخر كلمة هي ان الثورة ليست تغييرا سياسيا اجتماعيا فحسب ، بل ان الثورة هي التي تقوم من ايديولوجية انقلابية .

وهكذا نرى ان المعلق لم يستطع ان يتبين فكرة الكتاب ولا ان يتبع نهجا موضوعيا وموقفا علميا ، فاستعاض عن ذلك بالتشويه وبالتحريف الذي لا يليق بالفكر الرزين عمدا او عفوا . فهو مثلا يحاول ان يوحي للقارىء بان دراسة الدكتور البيطار تعتمد « النعوت الشائنة » ، كقول المؤلف « الوجود التقليدي وجود عفن وسخ » . هذه الكلمات كلها للمعلق ، ففي الكتاب لا يوجد اثر لها ، وهي تفضح النفسية التي عالج المعلق الكتاب بها . ذلك بارز بوجه خاص في بعض الكلمات ، اخذها المعلق من صفحة ٩٩٠ ، حول النفوس الانهزامية والنفوس التي تنطوي على امكان الانتفاض والتحرر الروحي والانتقام العقائدي ، نزعها المعلق من الاطار التي جاءت فيه بشكل جعلها تخسر طابعها والمعنى الذي جاءت فيه . فتلك الكلمات وردت في الواقع كجزء لا يتجزأ من رد على اولئك الذين لا يؤمنون بامكان تجديد الوجود العربي تجديدا روحيا نفسيا يعتمد ايديولوجية انقلابية جديدة (ص ٩٨٨ – ٩٩١) . ومما يدل بوضوح على غاية التشويه عند المعلق هو ان الجملة التي جاءت بعد الجملة التي اخذ المعلق منها تلك الكلمات تؤكد بوضوح ان شعبا « لا يعي اتجاهات وقوى العالم الذي يحيط به ، وانقلابا لا يتركز على القوانين التي تسود